مجلة التراث العلمي العربي فصلية ، علمية ، محكمة العدد الثاني – 2013م

علم الكلام ونشأته

م.د. زينب عبدالحسن الزهيري
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد

(**خلاصة البحث**)

يعد علم الكلام احد أهم العلوم الإسلامية التي ظهرت خلال القرن الثاني الهجري حيث ترجع بواكيره الأولى إلى العهد الأموي، وتعاونت على نشوئه وارتقائه أسباب كثيرة بعضها داخلية والأخرى خارجية.

والكلام في اللغة هو القول أو اللفظ الدال على معنى يحسن السكوت عليه، وواحد الكلام هي كلمة وهي اللفظ الذي يتألف من أصوات منطوقة على هيئه حروف وتشير إلى دلاله ومعنى.

وفي هذه الدراسة سنتناول ، تعريفات علم الكلام وتسمياته وهو المحور الأول ،في حين سيهتم المحور الثاني منها بدراسة اهم العوامل التي ساهمت في نشأة علم الكلام الداخلية منها والخارجية ،كما وسيتناول المحور الثالث منها موضوعة المعتزلة ونشأة الأعتزال وأصول الأعتزال الخمسة ،وجاء المحور الرابع منها ليوضح لنا أهم الآراء الواردة حوله كعلم سواءا كانت سلبية ام ايجابية ،وأيضا موقف الفقهاء من علم الكلام.

المحور الاول:

١ –تعريفات علم الكلام

تشير التعاريف التي وردت إلينا عن علم الكلام إلى آن اقدم تعريف لهذا العلم تلك التي تنسب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان مؤسس المذهب الفقهي المعروف في القرن الثاني الهجري والذي خلاصته (اعلم أن الفقه في أصول الدين افضل من الفقه في فروع الأحكام والفقه هو معرفة النفس ما يجوز لها من الاعتقاديات والعمليات، وما يجب عليها منهما.. وما يتعلق بالاعتقاديات هو الفقه الأكبر وما يتعلق بالعمليات فهو الفقه)[1].

ويذهب الفارابي في كتابه إحصاء العلوم إلى تعريف علم الكلام بأنه (صناعة الكلام يقتدر بها الإنسان على نصره الآراء والأفعال المعنية المحددة التي صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل) [2]، في حين يرى صاحب مجمع البحرين إلى أن علم الكلام هو(العلم الذي يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته وعن أحوال الممكنات في المبدأ أو المعاد،على قانون الإسلام) [3]. ويؤكد الايجي المتوفى 756هـ بأنه (علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه)[4].

أما تعريف علم الكلام عند الفيلسوف الأجتماعي ابن خلدون المتوفى 808هـ يذكر فيه بأنه "علم يتضمن الحجج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المنحرفين في الاعتقادات"، وقريب من ذلك نجد عند علماء القرون التالية كالتهانوي في كشافه، والسنوسي في مقدمته، والباجوري في رسالته، والميهي في شرحه لمنظومته [5].

ويعرف سعد الدين التفتازاني علم الكلام بأنه (يعرف بالعلم الباحث عن أحوال الصانع، وفي صفاته الثبوتية، والسلبية وأفعاله المتعلقة بأمر الدنيا والآخرة، أو

عن أحوال الواجب وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام" كما يعرفه أيضا بأنه "العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية) [(6)].

ويذكر الشريف الجر جاني في تعريفه لعلم الكلام بأنه (علم يبحث فيه ذات الله تعالى وصفاته، وأحوال الممكنات في المبدأ والمعاد على قانون الإسلام) [(7)].

وتجدر الإشارة أو الملاحظة على تعريفي التفتازاني والجر جاني لعلم الكلام أنهما قد تناولا من خلاله موضوعات هـواهم مباحثه وأشرفها ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، واثبات العقائد الدينية فهو علم يأخذ بمنهج البحث والنظر والاستدلال العقلي كوسيلة لاثبات العقائد الدينية التي تثبت بالوحي[(8)].

ولاشك من أن إيجاد العالم المسلم القادر على بيان أحكام الإسلام الاعتقادية وأصوله الفكرية بالبرهنة عليها وتمييزها عما يغايرها من عقائد وأصول ورد الشبه عنها هي غاية هذا العلم وثمرته ، كما أن منهجه يقوم أجمالا على الجمع بين الشرع والعقل أو كما قالوا انه يقوم على العقل اعتمادا وعلى الشرع اعتداداً، في حين أن موضوعة يتطور تبعا لتطور أطوار هذا العلم ولذلك يعرف بأنه العلم الباحث من أحوال الصانع عن صفاته الثبوتية والسلبية وأفعاله المتعلقة بأمر الدنيا والآخرة أو عن أحوال الواجب وأحوال الممكنات في المبدأ والمعاد على قانون الإسلام .

٢ – تسميات علم الكلام

تعد مسالة التسمية في العلم الذي ندرسه غاية في الأهمية نظراً لتعدد الأسماء التي عرف بها هذا العلم، وهي في الوقت ذاته تلقى الضوء على تاريخ هذا العلم وتطوراته، وان من اقدم التسميات التي عرف بها هو علم الفقه الأكبر وصاحب هذه التسمية هو الأمام أبو حنيفة النعمان المتوفى في منتصف القرن الثاني الهجري وكلمة" الفقه" لها

اصل قرآني معروف هو قوله تعالى في سورة التوبة، اية 122﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين﴾[8].

وأيضا من أسماء علم الكلام علم التوحيد ذلك لان توحيد الله تعالى أهم مباحثه وأجزاءه واعظم مقاصده وأشرفها، لان شرف العلم من شرف العلوم وهو توحيد الباري عز وجل[9].

كما عرف هذا العلم باسم(علم النظر والاستدلال) كما ورد ذكره عند التفتازاني في مقدمه شرحه للعقائد النسفية وكما يذكره الشيخ محمد يوسف في مادة التوحيد من الطبعة العربية لدائرة المعارف الإسلامية، والنظر هو الفكر في الأشياء أي ترتيب المعلومات السابقة في الذهن للتوصل فيها إلى المطالب المجهولة وقد كان هذا العنوان يختص في كتب الكلام القديمة بالمدخل التمهيدي لعلم الكلام الذي يختص بدراسة الحجج والأدلة بعد أن يشرح معنى العلم والمعرفة وطريقة الوصول إليها أي انه يدرس منهج علم الكلام ونظرية المعرفة ومصادر الاستدلال المقبولة لدى المتكلمين كما نجد في كثير من الكتب التي الفت في القرون الأولى من تاريخ علم الكلام[14].

ويقول الايجي المتوفى عام 756هـ إنما سمي هذا العلم بالكلام لانه بازاء المنطق للفلاسفة، وأما لان أبوابه عنونت أولا الكلام في كذا، أو لان مسألة الكلام اشهر أجزاءه حتى كثر فيه التشاجر والسفك فغلب عليه، أو لانه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات مع الخصم، والسؤال الذي يطرح هنا هل تبنى المتكلمون الأوائل هذه التسمية وجعلوها علما على علمهم؟ والجواب أن المعتزلة وشيخهم واصل بن عطاء المتوفى 131هـ هم أول من فتق الحديث في علم الكلام ولاتدل أسماء كتبه وأقواله انه استخدم هذا اللفظ كاسم لعلم متمايز، أما القول في تحليل التسمية أن

أبواب هذا العلم تبدأ معنونة بالكلام... فليس علم الكلام وحده دون سائر العلوم هو الذي اختص بهذا النحو من التبويب[15].

ومن أسمائه أيضا(علم التوحيد والصفات) ونجد هذه التسمية في مصادر قديمة نسبيا مثل " شرح العقائد النسفية" وقد عللها بقوله:" ولما أن ذلك يقصد مباحث الصفات- اشهر مباحثه واشرف مقاصده" ولاشك أن البحث حول الذات الإلهية وما يتعلق بها من الصفات والأفعال هو أهم مقاصد علم الكلام أو كل مقصودة عند البعض والصفات الإلهية خص بالذكر معها من قبيل ذكر الخاص مع العام فقيل "علم التوحيد والصفات" ولعل هذا الاسم قد بدأ بالانتشار منذ القرن التاسع الهجري[16].

وكذلك سمي هذا العلم(بعلم أصول الدين) ويقصد بأصول الدين أمهات العقائد المتعلقة بمعرفة الله عز وجل ووحدانيته وصفاته وروؤس موضوعات العقيدة كالقدر والجبر ، ولعل من ابرز مصنفات العلماء في علم الكلام والتي كان يسمونها علم أصول الدين نذكر منها الأربعين في أصول الدين للجو يني ، والأربعين في أصول الدين لأبي حامد الغزالي ، والأربعين في أصول الدين للفخر الرازي[17].

ويطلق على علم الكلام تسمية (علم العقائد) وهي ترجع في زمانها إلى القرن الرابع الهجري ، والعقائد جمع عقيدة وهي فعيل بمعنى مفعول أي المعتقدات الدينية ، والمقصود بها القواعد والأحكام الشرعية الاعتقادية التي يطلب من المكلف الاعتقاد بها ؛ أي الأيمان بصحتها كما شرحها "التفتازاني" مثل الله أحد ، والشريك محال ، البعث حق .

ويمكن القول أن علم الكلام سمي بهذا الاسم لان مسالة الكلام كانت من اشهر مباحثه وأكثرها نزاعاً وجدلاً ،. فمسألة كلام الله هل هو محدث ، أم قديم

كانت اشهر المسائل التي بحثها رجال هذا العلم فمسألة الكلام في ذات الله ، كانت ابرز مباحثه أو لانه يورث القدرة على الكلام ، وألزام الخصوم بالحجج [18] وأن تسميته هذه قد ظهرت في عصر المأمون ، إذ يقول الشهرستاني(ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون ، فخلطت مناهجها بمناهج الكلام ، والجدل الفلسفي أو المنطق ، وأفردتها فناً من فنون العلم) وأفاد أن(سبب هذه التسمية أما لانه أظهر مسألة تكلموا فيها وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام ، وأما لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فناً من فنون علمهم بالمنطق ، والمنطق والكلام مترادفان)[19].

المحور الثاني :نشأته

اولا :العوامل الداخلية

بدأ الإسلام ببناء العقيدة مثله في ذلك مثل أي دين آخر ، لان العقيدة أساس السلوك والعمل، وتدور مسائل العقيدة حول التوحيد والنبوة والوحي وقد غلب على النص القرآني أسلوب التنزيه للألوهية وإسباغ الكمالات على الذات الالهيه ووصفها بالقدرة والجبروت ، ورد القرآن كذلك على المناوئين لها من مجوس وصائبة ويهود ومسيحيين، ومن المعروف أن النبي (ص) وصحابته تلقوا أصول العقيدة واحترزوا من الجدل فيها وكان المؤمنون على عهد النبوة إذا اختلفوا رجعوا إلى كتاب الله وسنة الرسول وأستمر الحال على هذا النحو إلى أن تأزمت مشكلة الخلافة بعد وفاة الرسول (ص) على عهد الصحابة فثار حولها نزاع سياسي وانقسم المسلمون بعده إلى فرق وأحزاب سياسية يرى كل منها رأيا بمن هو أحق بالخلافة[20] .

لقد كان من الممكن أن تظل هذه الخلافات في دائرة الفروع فلا تشجب وحدة الأمة الإسلامية وتفرقها، لولا أن تدخلت عوامل كان لها أثرها في تعميق شدة

الخلاف من جهة وتحويل الخلافات السياسية إلى خلافات عقائدية أذنت بظهور الجدل حول العقائد في صورة(الكلام الإسلامي) من جهة ثانية [21].

كما يركز أبن خلدون في مقدمته على أن وجود المتشابه في القران الكريم كان سببا رئيسيا لنشأة علم الكلام، ويرجع البحث في ذات الله وصفاته ورؤيته سواء بالقلب أو بالبصيرة وكذلك كلام الله من حيث كونه قديما أو مخلوقا ومسائل التوحيد بصفة عامة[22].

ونجد في القران آيات تشعرنا بالتجسيم أو بالتشبيه وأخرى تشدنا إلى التنزيه، فمن الآيات ما يشير إلى أن لله عرشا وان له تعالى وجها...الخ ومنها ما ينزه الله عن صفات المخلوق كقوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ سورة الشورى آيه 11، وقوله أيضا ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ سورة الصافات آية 180، وكذلك أثيرت مسالة أخرى هي مسالة الجبر والاختيار استنادا إلى آيات متشابهات مثل قوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ سورة الأنفال آيه 17 وهي آيه صريحة في الجبر، ومثل ﴿ وما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ سورة النساء آية 79، وكذلك قوله تعالى ﴿ وهديناه النجدين﴾ سورة البلد آيه 10، ليختار إلى الطريقين وهذه آية صريحة في الاختيار أي في القول بحرية الإرادة[23].

والجدير بالملاحظة أن بعض المدافعين عن الكلام يزعمون أن السنة النبوية المطهرة كانت أيضا من العوامل الداخلية التي أسهمت في نشأة علم الكلام وان هناك العديد من الأحاديث الصحيحة والحسنة حول مسائل كلامية متعددة منها ما ذكره الأمام البغوي في مصابيح السنة إذ ذكر حديثا من الصحاح بسنده عن أبي هريرة قال: " جاء ناس من أصحاب الرسول (ص) إلى النبي فسألوه أنا نجد في أنفسنا ما

يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال: أوجدتموه؟ قالوا نعم قال: ذاك صريح الأيمان، وقال يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك، فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته"، وقال: لا يزال الناس يسألون حتى يقال هذا الله خالق من خلق الله؟ فمن وجد عن ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله ورسوله[24].

أما العامل الداخلي الآخر لنشأة علم الكلام فهو مسالة الإمامة والخلافة السياسية ويذكر في هذا المجال أبو الحسن الأشعري: ((أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد وفاة نبيهم إختلافهم في الإمامة ولازال الانشقاق المذهبي بين المسلمين إلى يوم قائما بين أهل السنة والشيعة والخوارج وهو خلاف في جوهره سياسي ،ولكنه في فكره ارتبطت فيه السياسة بالدين، وكان لابد أن تتصل الأفكار بجوانب دينية وأصبحت هذه المشكلة فيما بعد إحدى موضوعات الكلام))[25].

ثانيا: العوامل الخارجية

لعل من ابرز العوامل الخارجية في نشأة علم الكلام عند المسلمين هو الغزو الثقافي الأجنبي أو الثورة الثقافية المضادة، إذ أن المسلمين فتحوا بلادا ذات ثقافات عريقة ، مثل فارس والشام ومصر وكان الفرس يؤمنون بالزرادشتية والمانوية والمز دكيه، كما انتشرت اليهودية والمسيحية في الشام ومصر وعندما أحست هذه الشعوب المغلوبة بعجزها عن مقاومة جيوش المسلمين أنبرى مثقفوها ليشنوا حملة ثقافية مضادة على العقيدة الإسلامية للتشكيك فيها مستهدفين أضعاف الروح الإسلامية وتفتيت وحدة المسلمين ولما كانت الفلسفة اليونانية وأساليب المنطق اليوناني قد ذاعت وانتشرت في هذه المناطق قبل ظهور الإسلام فقد كان على اليهودي أن يواجه قضاياه في مرحلة مبكرة[26]، لم يلبث أن تأثر بها وكان ذلك واضحا في التفسير الرمزي للتوراة على يد (فيلون السكندري) ثم جاءت المسيحية وظهرت حركة علماء الكلام

المسيحي وظهر الجدل بينهم حول الله وصفاته والنبوة والوحي وحرية الإرادة وعباده ألايقونة والثالوث الأقدس ، وسر التجسد وطبيعة المسيح ،وانقسام المسيحيون على أثرها إلى يعاقبة ونساطرة وملكايين، وعندما أحتك المسلمون بالمسيحيين الذين كانون يعيشون بينهم اضطروا إلى التسلح بالفلسفة والمنطق الأرسطي لمواجهة هولاء الخصوم الذين حذقوا فن الجدل ،فكان هذا سببا كافيا لنشأة علم الكلام[27].

إذا يمكن القول أن هنالك أسباب كثيرة بعضها داخلي والبعض الآخر خارجي قد تعاونت على نشوء وارتقاء هذا العلم وان الأسباب الداخلية صدرت من طبيعة الإسلام نفسه والمسلمين والأسباب الخارجية جاءت من الثقافات الأخرى[28].

المحور الثالث:المعتزلة

١ -نشأة الاعتزال

الاعتزال لغة مأخوذ من اعتزل الشيء وتعزله بمعنى تنحى عنه، ومنه تعازل القوم بمعنى تنحى بعضهم عن بعض، وكنت بمعزل عن كذا وكذا، أي كنت في موضوع عزلة منه واعتزلت القوم أي فارقتهم وتنحيت عنهم ، ومنه قوله تعالى ﴿ وان لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ سوره الدخان، ايه 21، أراد أن لم تؤمنوا بي فلا تكونوا علي ولامعي أما المعتزلة أصطلاحا: فهو اسم يطلق على فرقة ظهرت في الإسلام في أوائل القرن الثاني الهجري وسلكت منهجا عقليا جاء متطرفا في كثير من آراءه[29] ،والمعتزلة كما ذكرنا إنها من اقدم الفرق الكلامية وأكثرها ميلا إلى العقل وأحكامه[30]، وليست المعتزلة أول الفرق الكلامية، فقد سبقها نشأة فرق كالجهمية والقدرية ولكن المعتزلة أهم فرقة عرضت موضوعات علم الكلام في نسق مذهبي متكامل، بل لقد أصبحت مسائل علم الكلام تنافش في إطار الحدود التي وضعها رجال المعتزلة ويعترف لهم خصومهم فضلا عن المنصفين بذلك يقول الملطي وهو من

الخصوم (انهم أرباب الكلام وأصحاب الجدل والتميز والنظر الاستنباط والحجج على من خالفهم وأنواع الكلام والمفرقون بين علم السمع والعقل والمنصفون في مناظرة الخصوم)[31].

كما يقول عنهم الاسفرييني وهو من الخصوم أيضا انهم أول فرقة أرست قواعد الخلاف ، ومن المنصفين يذكر عنهم القاسمي انهم "أول من ظهر من الفرق الإسلامية في صدر حضارة الإسلام بقواعد الأصول والعمل على الجمع بين المنقول والمعقول وانهم من اعظم الفرق رجالا وأكثرهم اتباعا[32].

لقد كثرت الآراء وتعددت حول نشأة هذه الفرقة وفي هذا المصدر يذكر السمعاني: أن المعتزلة نسبة إلى الاعتزال أي الاجتناب والجماعة المعروفة بهذه العقيدة أنما سموا بهذا الاسم لان أبا عثمان عمر بن عبيد أحدث ما أحدث من البدع واعتزل مجلس الحسن البصري وجماعة معه فسمو بالمعتزلة، والى مثل هذا الرأي يذهب المقريزي[33]، أما صاحب مروج الذهب فانه يعلق بدء ظهورهم على اصل من أصولهم ويعني به المنزلة بين المنزلتين دون الإشارة إلى اختلاف واصل أو عمرو على الحسن البصري ، يقول المسعودي: "ومات واصل بن عطاء ويكني بابي حذيفة في سنه إحدى وثلاثين ومائه وهو شيخ المعتزلة وقديمها وأول من اظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وهو أن الفاسق من أهل الملة ليس بمؤمن ولاكافر وبه سميت المعتزله، وثمة رواية أخرى تقرر أن الذي ساهم بذلك "قتادة بن دعامة السدوسي" المتوفى 117هـ إذ دخل مسجد البصرة وكان أكمه فإذا بعمرو بن عبيد ونفر معهم فأمهم وهو يظن إنها حلقة الحسن البصري فلما عرف إنها ليست له قال: إنما هولاء معتزلة ثم قام عنهم، ومنذ ذلك الحين سموا بالمعتزلة[34].

على أن اكثر الراويات والتي اتفق عليها حتى خصومهم في اصل نشوء الاعتزال والتي اعتبرت أو عدت نقطة بدء تاريخية لنشاه هذه الفرقة وهي أن رجلا دخل على الحسن البصري وقال: ((يا أمام الدين لقد ظهر في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الأيمان، بل أن العمل على مذهبهم ليس ركنا من الأيمان، لا يضر مع الأيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئه الأمة ، فكيف تحكم لنا في ذلك أعتقادا))، فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء:((أنا لأقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولاكافر مطلقا بل هو في منزله بين المنزلتين لامؤمن ولاكافر))، ثم قام واصل واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن:" اعتزل عنا واصل" فسمي هو وأصحابه بالمعتزلة[35].

٢ –الأصول الخمسة عند المعتزلة

يقوم الاعتزال على أصول خمسة عامة من اعتقد بها كان معتزليا، ومن انقص منها أو زاد عليها ولو أصلا واحدا لم يستحق الاعتزال وتلك الأصول مرتبه حسب أهميتها على النحو التالي[36]:

- التوحيد : وهو تأكيد وحدانية الله وتفرده بالقدم والأزلية، التي هي أهم أوصاف الألوهية عندهم، وقد كانت آراؤهم فيها مدار الصراع مع الفرق السنية جميعا، وغلب عليهم طابع التنزيه ولو على حساب الفهم الواضح للنصوص الثابتة وهم يقولون: أن الصفات هي عين الذات والقديم واحد، ويخشون من القول بقدم الصفات ومغايرتها للذات للوقوع في الشرك والتعدد ولكن قولهم بخلق القران ومعاملتهم العنيفة لخصومهم كان من أخطائهم الكبرى كما يذكر ابن خلدون

فضلاً عن تأويلهم للنصوص المتعلقة بالصفات التي توهم التشبيه في نظرهم او رفضهم لها مما عزلهم عن ضمير آلامه[37].

- العدل: وهو أساس منهجهم في التفكير الكلامي وإحدى العقائد الأساسية في الوقت نفسه ويتضمن ما يلي:

أ – القول بالتحسين والتقبيح العقليين أي بقدرة العقل على معرفة الحسن والقبح الذاتيين في الأشياء، وعلى أدراك الحكم الواجب اتباعه والذي يثاب ويمدح فاعله ويلام ويعاقب تاركه، لامجرد الميل النفسي والنفور أو الكمال والنقص كما يقول الآشاعرة.

ب -وجوب اللطف والصلاح على الله تعالى وهو أن يفعل سبحانه كل ما يقرب العبد من الطاعة ويبعده عن المعصية بحيث لايصل الى حد الإجبار والإكراه على ذلك.

ت -حرية الإنسان وقدرته الموجدة الفعالة دون تدخل من قدرة الله تعالى وهي مسالة" أفعال العباد" التي اتهموا من اجلها بأنهم قدرية أو ثنوية وهم لا ينكرون علم الله القديم، وان بالغوا بصورة قد لا يشهد لها الواقع في حرية الإنسان ومدى قدرته وارادته[38].

- الوعد والوعيد: ذكر المعتزلة أن الله تعالى صادق وعده ووعيده وذلك يوم القيامة لا مبدل لكلماته فلا يغفر الكبائر إلا بعد التوبة، فإذا خرج المؤمن من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب، واذا خرج من غير توبة كبيره ارتكبها خلدّ في النار وكان عذابه فيها أخف من عذاب الكفار، لذلك فان المعتزلة أنكروا الشفاعة يوم القيامة فتجاهلوا الآيات القرآنية التي تقول بها وتمسكوا بالآيات التي تنفيها لان الشفاعة تتعارض مع مبدأ الوعد والوعيد فلا يستطيع أحد أن يشفع

عند الله لأحد ويجعله ينجو من العقاب، بل تجد كل نفس يومئذ من الثواب بقدر عملها الصالح ومن العذاب بقدر عملها السيئ[39].

- المنزلة بين المنزلتين: أي عدم وصف العاصي ومرتكب الكبيرة بالإيمان ولا بالكفر وهو في منزله بينهما [40]، وهذه المنزلة هي منزلة الفسق، أي انهم جعلوا الفسق منزلة ثالثة مستقلة عن منزلتي الأيمان والكفر، واعتبروه وسطا بينهما[41].

وما لاريب فيه أن المعتزلة أخذوا فكرة المنزلة بين المنزلتين في أول الأمر عن مصادر إسلامية، فقد وردت آيات في القرآن تشير إلى الطريق الوسط منها قوله تعالى:" وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس" سورة البقرة، آيه 137، وقوله تعالى" ولا تجهر بصلاتك ولاتخافت بها وأبتغ بين ذلك سبيلاً" سورة الإسراء، آيه 110 [42]، وأيضا حين بدأ المعتزلة يدرسون الفلسفة اطلعوا على أقوال الفلاسفة اليونانيين في المنزلة بين المنزلتين، أو ما يدعونه بالوسط الذهبي، وقد كانت لأولئك الفلاسفة فيها جولات مشهورة وأراء سديدة وخصوصا أر سطو الذي بني عليها فلسفته الأخلاقية تلك الفلسفة التي اقتسبها عنه مسكويه وضمنها كتابه" تهذيب الأخلاق" ولهذا يمكن القول أن المعتزلة حين وقفوا على ما ذكرته المصادر الإسلامية وحين دققوا في ما ورد في كتب الفلسفة اليونانية، أفتوا بين القولين وأمكنهم التوسع في فكرة المنزلة بين المنزلتين حتى جعلوا منها مبدأ أخلاقيا وخطة فلسفية مثل هي خطة الاعتدال في الأمور والتوسط بين المتطرفين وتركت هذه الخطة في تعاليمهم آثرا عظيما[43].

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو حكم عملي رفعه المعتزلة إلى منزلة الأصول الاعتقادية وحاولوا الالتزام به أول عهدهم داخل المجتمع المسلم ، بالإنكار على الحكام الظلمة ومقاومتهم ولو بالخروج المسلح ، وفي خارج المجتمع

المسلم بالدعوة إلى الإسلام بصورة منتظمة قائمة على التطوع والحسبة وقد قتل طائفة من رجالهم في ثورة زيد بن علي كما شاركوا في محاولات أخرى[44].

وجدير بالذكر أن المعتزلة كان لهم فرق وهذه الفرق كانت تجتمع وتختلف في مبادئ أخرى وعدد هذه الفرق كان حوالي22 فرقة تتفق جميعها على أمور يسمونها الأصول الخمسة وهي التي مر ذكرها سابقا وتختلف في أن المعتزلة كغيرها من الفرق عند نشؤها قد بدأت محدودة التفكير مقتصرة على الأصول الخمسة ولكن سرعان ما تعمق المعتزلة في بحث تلك الأصول وتوسعوا في شرحها فنشأ عن ذلك مسائل فرعية من هذه الأصول وغيرها وتشعبت آرائهم واشتد بينهم الحوار والجدل وتتبع كل فرقة أحد رووس الاعتزال البارزين وهذه الفرق هي: الواصلية ،العمرية، الهذلية، النظامية، والثمامية، المعمرية، البشرية، الهاشمية، المر دارية، الجعفرية، الاسوارية، الإسكافية، الخابطيه والحدثية الموسية، الصالحية، الجاحظية، الشامية، الخياطية، الجبائيه، الكعبية، البهشمية،وأخيرا الحمارية[45].

وفي إطار المعتزلة وعلى أيدي أعلامهم تبلور في علوم الحضارة العربية الإسلامية علم الكلام الذي مثل الفلسفة الإسلامية وفلسفة التوحيد المتميزة عن فلسفات ذلك العصر [46]، وان مناقشات المتكلمين أنعشت الحياة الثقافية عند المسلمين ولكن ظهرت مشكلة أثارت جدلا كبيرا بين المتكلمين وأهل الحديث ، وهي مسالة القول بخلق القران هل هو مخلوق أو قديم، ولذلك كانت مهمة المتكلم هو الرد على أهل البدع والضلالات ودونوا الأدلة العقلية دفاعا عن الدين[47].

ولعل من المناسب أن نشير هنا إلى أن المتكلمين لاقوا معارضة الخلفاء العباسين للاعتزال والمعتزلة وخصوصا في العصر العباسي الأول، فهذا عمروا بن عبيد من ابرز المعتزلة في عهد المنصور كان يتجنب المنصور حتى لا يتعرض لبطشه، كذلك

كره الرشيد المعتزلة، فلما أدرك أن الشاعر العتابي من المعتزلة، عظم عليه ذلك وأنكره[48].

لقد ارتفع شان المعتزلة وانتعشوا في عهد المأمون، لانه أيد المعتزلة واعتنق مبادئها، وسار المعتصم على نهجه واشتد على الرافضين للقول بخلق القران بان عزلهم من وظائفهم وزج بهم في سجون ومنهم الأمام احمد بن حنبل ولما خشي المعتصم حدوث الفتنة من مريديه وتلامذته وخصوصا بعد أن أعجبوا بصلابته وقوة أيمانه وعقيدته القوية، كما أن المعتصم نفسه اعجب بشجاعته وثبته، فأمر بالإفراج عنه بعد أن اكتفى بضربه ، وبلغ من اهتمام المعتصم بحمل الناس على القول بخلق القران أن أمر عماله بتعليم الصبيان ما ذهب إليه، وسار على نهجه أيضا الخليفة الواثق الذي كان يؤمن هو الآخر بآراء المعتزلة وظل المسلمون يحملون على القول بخلق القران حتى تولى الخليفة المتوكل الخلافة وعارض مذهب المعتزلة وأقوالهم أيضا وبذلك انتهى ماسمي بمحنة القران[49].

ويمكن القول أن أهمية المعتزلة لا ترجع لدورهم البارز في علم الكلام، أو أنها تمثل النزعة العقلية في الفكر الإسلامي فقط بل إلى مكانتها في الحضارة الإسلامية أبان ازدهارها وذلك لان:

أ أن المسار التاريخي للمعتزلة قد صاحب المسار التاريخي للحضارة الإسلامية ازدهارا وأنهيارا بمعنى أن أزدهار الاعتزال كان في أوج الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري كما أن غياب المعتزلة قد اقترن بتدهور هذه الحضارة ولم تكن الحال كذلك لبقية الفرق الكلامية.

ب – أن الأغلبية الساحقة من رجال هذه الفرقة كانت من الموالي بل من أصحاب الحرف[50].

المحور الرابع: الآراء الواردة حول علم الكلام

اولا– المأخذ على علم الكلام

١ –أن جمهورهم من متكلمي المعتزلة ، والاشاعرة يرون أن الأدلة النقلية تفيد الظن ولا تفيد اليقين ، ومعنى ذلك أن أدلة ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لا تفيد في إثبات مسائل الأيمان ، يقول ابن تيمية في ذلك :" يزعم كثير من القدرية والمعتزلة أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن الكريم على حكمة الله وعدله، وانه خالق كل شيء ، وقادر على كل شيء ، وتزعم الجهمية من هؤلاء ومن اتبعهم من بعض الأشعرية وغيرهم انه لا يصح الاستدلال بذلك على علم الله وقدرته ، وعبادته ، وانه مستوٍ على العرش ، يزعم قوم من غالبية أهل البدع انه لا يصح الاستدلال بالقرآن والحديث على المسائل القطعية مطلقاً ، بناءاً على ان الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين بما زعموا ، ويزعم كثيراً من أهل البدع أنه لا يستدل بالأحاديث المتقاة بالقبول على مسائل الصفات والقدر ونحوها مما يتطلب فيه القطع واليقين "[51].

٢ –يؤدي علم الكلام بصاحبه إلى الشك والحيرة ، وذلك بسبب التأويلات الخاطئة للنصوص ، فهذا أبو الوفا علي بن عقيل يعلن توبته من الاشتغال بعلم الكلام،وكان ذلك أمام المصلين في المسجد ، وقال في توبته : أني أبرأ إلى الله تعالى في مذاهب المبتدعة والاعتزال وغيره أو من صحبة أربابه وتعظيم أصحابه ، والترحم على أسلافهم ... ، وما كنت علقته ووجد بخطي من مذاهبهم وضلالتهم ؛ فأنا تائب إلى الله سبحانه وتعالى عن كتابته وقراءته ، وانه لا يحَيل لي كتابته وقراءته ولا انتقاده[52].

٣ –ابتعاد علمائه عن الكتاب والسنة ، فهذا ابن أبي العز الحنفي يذكر : الواجب كمال التسليم للرسول (ص) والانقياد لأمره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يعارضه بخيال باطل يسميه معقولاً أو يحمله شبهة أو شيئاً أو يقدم عليه اراء الرجال[53].

٤ –الغلو في تقديس العقل وتعظيمه وإقحامه فيما لا يدركه، ولا يحيط به، وجعل عقول الناس هي الحاكمة فيما يؤخذ وما لا يؤخذ من العقائد، حتى وضعوا قواعد عقلية وكفّروا أو فسقوا من خالف هذه العقيدة[54].

ثانيا– موقف الفقهاء من علم الكلام:

١ – موقف الأمام مالك: يوصي الأمام مالك (رض) صاحب كتاب الموطأ وقد خاطب أصحابه بقوله:" إياكم والبدع" : قيل يا أبا عبد الله وما البدع .. ؟ قال أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته ، وكلامه وعلمه ، وقدرته ، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان "، كما يرى ابن عبد البر المتوفى سنة 463هـ – 1070 م في كتاب مختصر جامع بيان العلم وفضله) أن الأمام مالكاً كان يقول :" الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا ويقصد المدينة المنورة يكرهونه ، وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهر أو القدر ، وما أشبه ذلك ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل"[55].

٢ – موقف الأمام الشافعي : يعد الأمام الشافعي (رض) من اشهر الفقهاء انكاراً وذماً لعلم الكلام حتى انه كان يقول :" لان يبتلي المرء بكل ذنب نهي الله عنه ، ما خلا الشرك ، خير له من أن يبتلى بالكلام " وأيضاً ذكر الشافعي" لو أوصى رجلاً لأهل العلم ، لم يدخل أهل الكلام ... ولو أن رجلاً أوصى بكتبه

من العلم لآخر ، وكان فيها كتب الكلام ، لا تدخل في الوصية لأنها ليست من كتب العلم [56].

٣ –موقف الأمام احمد بن حنبل (رض) : يقول الأمام احمد لاحد طلابه عندما سأله رأيه من هؤلاء أصحاب الكلام : لا تجالسهم ولا تكلم أحداً منهم وقال له أي بما رددت عليهم ؟ قال : قال اتق الله ولا ينبغي أن تنصب نفسك وتشتهر بالكلام لو كان في هذا خير لتقدمنا فيه الصحابة ، هذه كله بدع ، قال الطالب: أني لست أطلبهم ولا أدق أبوابهم ولكني سمعتهم يتكلمون بالكلام ولا أحد يرد عليهم ، ولا أصبر حتى يرد عليهم ... قال أحمد:" أن جاءك مسترشداً فأرشده " وكررها مرارا[57].

٤ –موقف الأمام أبو حنيفة النعمان(رض):قال أبو حنيفة النعمان (رض) لعن الله عمرو بن عبيد المعتزلة فأنه فتح للناس الطريق أي الكلام فيما لا يعينهم عن الكلام [58]، ويذكر كذلك الهروي عن أبي المظفر السمعاني " قال : قلت لأبى حنيفة ويقول فيما أحدث الناس من الكلام من الأعراض والأجسام ... فقال : مقالات فلسفة قلت نعم

قال: عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فأنها بدعة[59].

٥ –موقف الأمام الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) المتوفى سنة 148هـ والذي تجسد في قوله (تكلموا فيما دون العرش ولا تتكلموا فيما فوق العرش ، فأن قوماً تكلموا في الله فتاهوا) [61].

الخاتمة

تناولت الدراسة موضوع علم الكلام وهو العلم الذي يبحث في الأدلة اليقينية ، المتعلقة بالعقائد الإسلامية ، وهذه الأدلة مبناها العقل والمستند إلى المنطق اساساً

وقد سمي بعلم الكلام لان المشتغلين فيه صنعتهم الكلام والجدل ولأن اعظم مسالة جرى عليها الخلاف كانت صفة الكلام لله تعالى.وأدى هذا العلم إلى انقسام المسلمين عقائديا إلى فرق شتى منها الجهمية والمعتزلة والاشاعرة والاباضية وغيرهم كثير والاختلاف في فروع العقائد وليس الأسس المتفق عليها بين الجميع.

واستند العلم في أدلته وبراهينه على علم المنطق وكانت لهذا العلم مصطلحات خاصة، وقد لاقى هذا العلم مواجهة عنيفة من أئمة السلف وعلمائهم وهذه آدت إلى تقوية العلم وأحيانا إلى أضعافه.

وفي عصرنا الحاضر تكشفت الكثير من الحقائق العلمية، وظهرت معارف جديده ومتنوعة، مما جعل الحاجة ماسة إلى مواجهة هذا الكم الهائل من المعلومات والنظريات بطريقة تخدم الدين بشكل فعال ومنتج، وهذا يتطلب أعادة النظر في مفهوم العقل ، لاسيما في ضوء ما استجد من حقائق علمية وان الفكر الإسلامي مصدر رحب لذلك، وان رؤيته لمعنى العقل رؤية ليس لها مثيل، وهذا يقودنا إلى ضرورة التركيز على القران الكريم والسنة المطهرة بما فيها من مظاهر الأعجاز الفكري والعلمي، وبالتالي يتطلب الموضوع ضرورة جعل نصوص القران والسنة هي المعتمد والمرجع لا ما نتوصل إليه بالعقل المستند إلى المنطق، وعدم تقيد الناس بالأيمان عن طريق العقل، وان يجتمع أصحاب المذاهب العقائدية الإسلامية على كلمة سواء بينهم فهم أولى بها ، وان يتجادلوا بالتي هي احسن، وان يحتكموا إلى الكتاب والسنة من اجل كشف الحقائق بموضوعية، وليس لهم إلا التفكير المتوازي والمتعاون فهو السبيل إلى كشف الحقائق التي تخدم الدين والمسلمين وتجمع الكلمة.

الهوامش

(1) حسن محمود الشافعي،المدخل إلى دراسة علم الكلام، مكتبة وهبة، القاهرة،1991،ط2،ص13

(2) عبدالجبار الرفاعي،علم الكلام الجديدوفلسفة الدين،دار الهادي للطباعة،بيروت– لبنان،ط1،2002، ص207

(3) المصدر نفسه، ص207

(4) الشافعي، المصدر السابق، ص21

(5) المصدر نفسه، ص20

(6) عامر النجار، علم الكلام عرض ونقد، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد– القاهرة، ط 1، 2003،ص8

(7) المصدر نفسه،ص9

(8) الشافعي، المصدر السابق، ص22-23.

(9) المصدر نفسه ، ص26

(10) عامر النجار، المصدر السابق، ص10

(11) الشافعي، المصدر السابق، ص32

(12) احمد محمود صبحي، في علم الكلام،مؤسسه الثقافة الجامعية،الإسكندرية، ط4، 1982،ص4-5

(17) الشافعي، المصدر السابق، ص30-31

(18) عامر النجار ، المصدر السابق، ص9

(19) الشافعي، المصدر السابق ، ص30

(20) عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين، بيروت، الجزء الأول، 1983، ص 32؛ محمد علي أبو ريان،تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعرفة، الإسكندرية، 1996، ص216

(21) علي الشابي،مباحث في علم الكلام والفلسفة ، دار بو سلامة ، تونس ، ط1، 1977، ص11

(22) محمد علي أبو ريان، المصدر السابق، ص219-221

(23) المصدر نفسه، ص221

(24) عامر النجار، المصدر السابق، ص30-35

(25) محمد علي أبو ريان، المصدر السابق، ص223-224

(26) عمار النجار، المصدر السابق، ص46-47

(27) احمد محمود صبحي، المصدر السابق، ص 17؛ مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1959، ص287.

(28) محمد علي أبو ريان، المصدر السابق، ص221
(29) المصدر نفسه، ص222
(30) احمد أمين، ضحى الإسلام، الجزء الثالث، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، 1936، ص1-8
(31) عواد بن عبد الله المعتق، المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منهم، مكتبة الرشد، الرياض، ط2، 1995، ص13-14؛ محمد عمارة، الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط3، 2005، ص54-55
(32) الشافعي، المصدر السابق، ص98
(33) احمد محمود صبحي، دراسة فلسفية الآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين(المعتزله) مؤسسه الثقافة الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1982،4،ص97.
(34) المصدر نفسه، ص97
(35) المصدر نفسه، ص102
(36) المصدر نفسه، ص103
(37) المصدر نفسه، ص101-102
(38) زهدي حسن جار الله،المعتزلة،المكتبة الأزهرية للتراث، درب الأتراك- خلف جامع الأزهر، 1947، ص51
(39) الشافعي، المصدر السابق، ص99
(40) المصدر نفسه،ص98
(41) زهدي حسن جار الله، المصدر السابق، ص51-52
(42) الشافعي، المصدر السابق، ص100.
(44) زهدي جا رلله، المصدر نفسه ، ص54
(45) المصدر نفسه، ص54-55
(46) المصدر نفسه ، ص 55-56
(47) الشافعي، المصدر السابق، ص100-101
(48) عوادبن عبدالله المعتق،المصدرالسابق،ص 51-52؛زهدي حسن جار الله،المصدر السابق ، ص113-156
(49) محمد عمارة، الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية، المصدر نفسه ، ص55

(50) احمد أمين، ضحى الإسلام، ج3، ص89-97

(51) عصام الدين عبد الرؤف ألفقي،تاريخ الفكر الإسلامي،دار الفكر العربي القاهرة، 2005، ص306

(52) المصدر نفسه، ص307-310

(53) احمد محمود صبحي، المصدر السابق، ص100

(54) عامر النجار، المصدر السابق، ص66

(55) المصدر نفسه ، ص 74

(56)عامر النجار، المصدر نفسه، ص 76- 77

(57) طيب تيزيني،علم كلام والفلسفة العقلية،منشورات جامعة دمشق،ط 6 ، 2000،ص122–128

(58) سعد الدين التفتازاني ، شرح المقاصد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ،د.ت، ص 34-35

(59)عامر النجار، المصدر السابق، ص18-19

(60) التفتازاني ، المصدر السابق ، ص 36

(61)عامر النجار، المصدر نفسه، ص 17

المصادر والمراجع

١ –احمد أمين، ضحى الإسلام، ج3، دار الكتاب الغربي، بيروت- لبنان، ط10، 1936.

٢ –احمد محمود صبحي، في علم الكلام ، دراسة فلسفية الآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين(المعتزلة)، مؤسسة الثقافة الجامعية للطباعة، والتأليف، والنشر، الإسكندرية، ط4، 1982.

٣ –حسن محمود الشافعي ،المدخل إلى دراسة علم الكلام ، مكتبة وهبة، القاهرة،ط2 ،1991.

٤ –زهدي حسن جاد الله، المعتزلة، المكتبة الأزهرية للتراث، درب الاتراك- خلف جامع الأزهر 1947.

٥ –طيب تيزيني، علم الكلام والفلسفة العربية، منشورات جامعة دمشق، ط1، 2000

٦ –عامر النجار، علم الكلام عرض ونقد، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد- الظاهر،ط2003،1

٧ –عبدالجبار الرفاعي،علم الكلام الجديد وفلسفة الدين،دارالهادي لطباعة والنشروالتوزيع،بيروت–لبنان ط1، 2002.

٨ –عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين ، دار العلم للملايين، بيروت،ج1، 1983.

٩ عصام الدين عبد الرؤف الفقي، تاريخ الفكر الإسلامي، دار الفكر الغربي، القاهرة، 2005.
10- علي الشابي، مباحث في علم الكلام والفلسفة، دار أبو سلامة ، تونس، ط1، 1977 .
11- عوادبن عبدالله المعتق،المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنه منهامكتبة الرشد،الرياض، ط2،1995.
12- محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام،دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ،1996.
13- محمدعمارة،الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية،نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرةط3، 2005.
14- مسعود بن عمر بن عبد الله الشهير بسعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد، تحقيق وتعليق الدكتور عبدالرحمن عميرة، تصدير فضيلة الشيخ صالح موسى شرف، مكتبة الكليات الأزهرية،القاهرة،د-ت.
١٥ – مصطفى عبد الرزاق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، لجنه التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،1959.

Theology and upbringing

Instructur.Dr. Zeinab Abdel Hassan Zuhairi
Center revival of Arab Scientific Heritage
Baghdad University

(Abstract Research)

The term The term Kalam is derived from the phrase *kalām Allāh* (Arabic: "word of God"), which refers to the Qur'ān, the sacred scripture of Islām. Those who practice>e *kalām* are known as Mutakallimun. HenceKalam, in Islam, speculative theology. 'Ilm al-kalam is one of the Islamic sciences, which discusses the fundamental Islamic beliefs and doctrines which are necessary for a Muslim to believe in. It explains them, argues about them, and defends them. In any case, 'ilm al-kalam is the study of Islamic doctrines and beliefs and in the past, it was also called "usul al-Din" or "'Ilm al-tawhid wa al-sifat". Islamic speculative theology. ('Ilm al-Kalam) evolved during the Umayyad period over different opinion interpretations concerning the Holy Qur'an and over issues provoked, including those on predestination, free will, and the nature of God. The most prominent early theological trend was the early mu'taziah. In its scholastic argument defense, it asserted the supremacy of reason, inclined to free will, and rejected an anthropomorphic characterization of God. The 'Abbasid Mu'tazilah school the Ash'ariya of the 10th-century school moved *kalam* back toward traditional approach, accepting, for example, the eternal, uncreated nature of the Qur'an and its literal truth. The school also represented the successful adaptation of Hellenistic philosophical reasoning to Muslim orthodox theology.